المغرب الأوسط من خلال كتابات ابن خلدون

د. بشار قويدر
جامعة الجزائر

لقد سهل إبن خلدون مهمة الباحثين عن تفاصيل حياته حين أقدم على الحديث عن نفسه في ذيل كتابه التاريخي الموسوم بـ"كتاب العبر"(1)، ورغم ما في هذه الترجمة من طرافة وإسهاب ، فإن عددا كثيرا من الباحثين لم يقتنعوا بها فراحوا يجمعون المعلومات عنه من مصادر أخرى، فجاء حديثهم عنه يكاد يفي بالغرض بدليل شيوع ذكره في معظم المحافل العلمية العالمية منذ وقت مبكر، حتى صار الرجل ذا شهرة عالمية بدون منازع.

وفي الحقيقة فإن الشهرة إكتسبها من خلال ما جادت به قريحته من أفكار جادة لم يسبقه إليها أحد قبله، والتي لا تزال لحد الآن تحضى باهتمام العديد من المفكرين والناقدين المتخصصين في مجالات عديدة من فروع المعرفة.

ونلتمس ذلك من خلال إنشغال علماء النفس وعلماء الإجتماع والفلاسفة والمؤرخين بالفكر الخلدوني، وإعجابهم بعمق أفكاره وتحليله المنطقي للظواهر الاجتماعية وإدراك أبعادها وتحديد منافعها.

وإذا كان إبن خلدون يتميز بهذه المميزات فقد بات واجبا على كل باحث ناشئ معرفة هذا الرجل معرفة جيدة، حتى يتمكن من رصد معالم أفكاره حول المسائل التي يتخصص البحث عنها.

وفي الحقيقة فإن المعرفة الجيدة هذه تتطلب في حد ذاتها دراسة مستقلة نتركها لغيرنا[2] ونكتفي برصد أهم مراحل تكوين شخصية هذا الرجل، والعوامل التي أسهمت بشكل مباشر في شحذ همته وتعميق بصيرته.

ومنها أن إبن خلدون تربى منذ نعومة أظافره[3] في وسط متحضر متعلم يدرك قيمة الثقافة والعلم في تكوين الجيل الصاعد، ومن حسن حضه وجود والده بجانبه حيث تفرغ للعمل الثقافي معتبرا ذلك إسهاما منه في تكوين وتربية إبنه.

وبفضل المكانة المرموقة التي تحتلها أسرة إبن خلدون إستطاع هذا الأخير الاتصال بمعظم علماء عصره[4]، وتلقى منهم مختلف فنون المعارف واستوعب منهم أصول العلوم المعروفة في عصره، ومنها على سبيل المثال العلوم الدينية بمختلف فروعها والعلوم العقلية بكل تشعباتها، مما أهله لاحتلال منصب سام في إدارة الدولة الحفصية بتونس رغم حداثة سنه[5].

ويبدو أن ابن خلدون لم يكن مرتاحا لهذه الوظيفة الرسمية في ظل تلك الظروف السياسية المتردية، إذ سرعان ما تخلى عنها في أول فرصة أتيحت له وفضل عنها إشباع رغبته في الإتصال بالعلماء والمفكرين الذين استقطبتهم مدينة "فاس"[6] المغربية التي أصبحت عاصمة الدولة المرينية.

وفي مدينة "فاس" اتضحت لابن خلدون معالم المستقبل حيث صار تحصيله
لمي متوازيا مع طموحه السياسي، فإلى جانب مجالسته العلماء والمفكرين، نال
صب رسمية في بلاط فاس منها كاتب سر السلطان المريني ومنها الإشراف على
ة المظالم، وهي وظائف سامية لا يرقى إليها إلا أصحاب العلم والوجاهة.

والظاهر أن هذه الوظائف قد أطلعته على الأساليب السياسية المتبعة عصرئذ،
الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك من حين لآخر بين الحكام والمعارضين،
شارك إبن خلدون في بعضها وراح ضحيتها أكثر من مرة مما اجبره في بعض
حيان على ركوب تيار المغامرة غير محمودة العواقب.

ولعل مثل هذه المواقف كانت من بين الأسباب الجوهرية في ظاهرة عدم استقرار
لاد المغرب الأقص، والتفكير في استبدالها بموطن آخر، وهذه المرة كانت نحو
ة الأوروبية، أي بلاد الأندلس، حيث قصد مدينة "غرناطة" التي تربط بينه وبين
انها ووزيرها علاقات المودة والصداقة(7).

ولقد رحبت سلطات غرناطة بابن خلدون واعترفت له بأياديه البيضاء عنها أيام
ة، فأكرمت وفادته، وشرفت إقامته، وبات الرجل صاحب الدار ، فأخذ في
نفسه على الإقامة المطولة وخاصة بعد نجاحه في مهمة السفارة التي كلف بها
بل حاكم غرناطة(8).

كن إبن خلدون سرعان ما عدل عن ذلك حين لاحظ كثرة الدسائس والمؤامرات
سية داخل بلاط بني الأحمر غرناطة، وأحس بمضايقات صديقه" الوزير إبن
ب"نتيحة السعايات والوشاية(9) ففضل الإبتعاد عن هذا الجو المحفوف بالمخاطر.

جاءت الفرصة مناسبة حين وصلته دعوة أحد أصدقائه وهو الأمير "أبو عبد الله
" أمير مدينة بجاية بالجزائر، الذي عرض عليه منصب "الحجابة" فلم يتردد في
نظرا للمكانة المرموقة التي يحظى بها صاحبها في ذلك الوقت.

والظاهر أن في بجاية إجتمعت لدى ابن خلدون فرصتين كانتا دائما طموحه المفضل وهما الممارسة السياسية ومهمة التدريس، إلى جانب ذلك تمكن إبن خلدون من الحصول على تعين لأخيه "يحي" في منصب القضاء وهو منصب لا يناله إلا أشهر رجال العلم وأهل المعرفة بقواعد الشريعة الإسلامية.

وفي المرحلة الممتدة ما بين عامي 766هـ و776هـ / 1365م-1376م قضاها ابن خلدون متنقلا بين المدن الجزائرية (بجاية، بسكرة، تلمسان) يقاسم أمرائها هموم التسيير ويشاركهم في الدسائس السياسية والمؤامرات التي تحاك ضد بعضهم البعض.

ولقد كان هذا الرجل يعيش صراعا داخليا لم يمكنه من إيجاد القرار الحاسم في حياته، وهو كيف يمكن لرجل مثقف أن يرضى طموحه السياسي من أجل نيل المناصب السامية، وفي الوقت نفسه يحافظ على شخصيته كرجل علم وثقافة، يقوم بالتدريس وينافس العلماء والمفكرين، ويناقشهم ويجادلهم.

وتتضح معالم هذا الصراع في نفسية إبن خلدون من خلال مذكراته التي كتبها في كتابه "التعريف"فهو اليوم حاجبا لأمير بجاية وغدا مسيرا إداريا لأمير قسنطينة حين غزا بجاية، ومرة أخرى مع "أبي حمو موسى"(10)، وأخرى متصوفا في رباط الشيخ أبي مدين من اجل التخلص من "غواية الرتب" على حد تعبيره.

بيد أن هذا الصراع النفسي لم يخرج إبن خلدون سالما إذ تعرض إلى محن عديدة كادت أن تكلفه حياته، حيث سجن أخوه"يحي" وأغتيل صديقه" إبن الخطيب الوزير وأدخل هو إلى السجن، ولاحظ الرجل بلاد المغرب تهتز من تحت قدميه.

لقد حاول ابن خلدون أن يراهن من أجل إنقاذ البلاد من الفتن والدسائس التي ميزت أمراء ذلك العصر، لكن ذهبت مجهوداته أدراج الرياح، فقد كان سرطان الانحلال السياسي والحسابات الآنية الضيقة متفشية بين أمراء بلاد المغرب

الأندلس، مما أعاق كل فكرة تدعوا إلى الاتحاد أو التحالف من أجل إقرار الوضع تسوية الخلافات سلميا.

ولعل عجز ابن خلدون وفشله في الوصول إلى مثل هذه النتيجة كانت إحدى الأسباب الموضوعية لإتخاذ القرار الأخير والحاسم في حياته وهو التخلي عن النضال سياسي كلية ، والتفرغ من أجل البحث العلمي(11).

ولقد وجد المناخ مناسبا حين إحتضنته إحدى القبائل الجزائرية واكرمت وفادته استضافت أسرته، وخصصت لها مكانا للخلوة والبحث في إحدى القلاع(12)قرب دينة فرندة القريبة من مدينة تيهرت.

وفي هذا الماكن شاء القدر أن يؤلف فيه ابن خلدون "المقدمة"خلال أربع سنوات ن الاعتكاف والتفكير المركز، وكان ذلك فيما بين عامي 776هـ و780هـ/ 1375م-137م قال إبن خلدون عن هذا البحث :"فأقمت بها متخليا عن الشواغل ها.وشرعت في تأليف هذا الكتاب، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب ذي إهتديت إليه في تلك الخلوة(13).

وفي الحقيقة فإن مظاهر الخلوة لا تزال من المواضيع الغامضة في حياة إين خلدون، لا ندري ما إذا كان الرجل قد حمل معه مصادره ومراجعه لاستعانة بها عند اللزوم، لا ندري هل كان يستقبل فيها العلماء والمفكرين للمناقشة وإبداء الرأي فيما كان تبه أو بما يخالج نفسه من أفكار، لأن "المقدمة"جاءت مخالفة تماما لما كان شائعا عند ماء عصره، وكانت تأليفا فريدا من نوعه وقد أثبتت الأبحاث العلمية المعاصرة لاحيتها وأهميتها البالغة لدراسة وفهم مختلف مظاهر التطورات التاريخية للمجتمع شري(14).

تبقى حينئذ هذه الأسئلة مطروحة في انتظار ما يساعد على فك رموزها، لكن لا نستبعد أن يكون الرجل قد استعان بطريقة أو بأخرى ببعض أفكار من سبقوه في هذا الميدان، ولربما يكون لعلماء الغرب الجزائري الذين آووا واستضافوا إبن خلدون في محنته دورا مهما لا في ترتيب إقامته فحسب، ولكن في مساعدته على التأليف أيضا.

إن ابن خلدون وهو رجل العلم والثقافة لا يمكن أن يخلوا بنفسه مدة أربع سنوات دون أن يستشير أحدا أو يناقش عالما في مسألة من المسائل التي كان يقوم بتحليلها، كما لا نستبعد فضول العلماء المتواجدين حوله في محاولة الاتصال به، وهو بينهم وقريب منهم.

صحيح أن الروايات المتوفرة لدينا لا تشير إلى ذلك، لكنها تتحدث فيما بعد عن إحتياج ابن خلدون إلى المصادر التاريخية حين أخذ يفكر في تأليفه التاريخي وهو كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر..."[15] الذي ألفه في مدينة تونس واستغرق في ذلك زهاء أربع سنوات، وكان فيها موزع الاهتمام بين التأليف والتدريس.

حين أنهى الرجل هذه المهمة تاقت نفسه إلى الهجرة مرة أخرى، وهذه المرة نحو المشرق، حيث إستقبل في القاهرة إستقبالا رسميا من طرف السلطات الحاكمة ومن طرف العلماء وطلاب العلم على حد سواء.

وفي القاهرة وجد ابن خلدون جوا مناسبا لمواصلة نشاطه العلمي حيث عين مدرسا بالأزهر الشريف، وقاضيا ومفتيا على المذهب المالكي، لكن الوشايات والمحن[16] ظلت تطارده أيضا في مصر، ولم يجد بعدها غير التفكير مرة أخرى في شد عصا الترحال، أملا في إيجاد متنفس له وملجئ مريح ينسيه آلام الصدمات النفسية، فقصد البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى مصر ليمارس فيها نفس النشاط وهو التدريس والقضاء.

بيد أن الجديد الذي طرأ على حياة ابن خلدون، وقد أشرف على نهاية العمر هو رتباطه بالسياسة والدبلوماسية، حيث شارك القادة المشارقة في القاهرة وفي دمشق مومهم وأتعابهم حين غزا القائد التتاري" تيمورلنك"(17) بلاد الشام.

وتشاء الصدف أن يكون ابن خلدون من بين الحاضرين ومن بين الشخصيات التي فاوضت مع "تيمورلنك" حول قضايا المسلمين ومصيرهم، وترتيب مسائل لاستسلام وغير ذلك مما يدخل في مثل هذه الجلسات.

وفي مذكرات إبن خلدون حديث ممتع عن محاور المحادثات التي جرت بينه وبين تيمورلنك"، ومظاهر إعجاب كل منهما بالآخر، فابن خلدون رأى في القائد تيمور لك الفتوة والشجاعة وقوة العصبية، فاستحسن استغلالهما من أجل توحيد العالم لإسلامي ولو تحت راية التتار أصحاب السياسة الحديدية، في حين رأى تيمورلنك في ن خلدون وقار الشيوخ العلماء وحكمة أهل التجارب وبعد نظرهم.

إن مثل هذه المسائل تحتاج إلى تحليل ونقد فمواقف إبن خلدون توضح بصورة صادقة ظروف عصره وتحمل ضمن طياتها مظاهر وقضايا سياسية دقيقة تعكس وضع السياسي لبلاد المغرب والأندلس انعكاسا صادقا، يستطيع الباحث أن يكشف همة لتفسير عدد هام من الجوانب الغامضة في تطور الأحداث السياسية والاجتماعية في بلاد المغرب فحسب، وإنما في العالم الإسلامي أيضا.

د المؤرخين والتاريخ:

من البداية شن ابن خلدون هجوما عنيفا ضد المؤرخين -العرب المسلمين- وضد اجهم التاريخي؟وحاسبهم حسابا عسيرا رغم اعترافه بفضل بعضهم على التطور اريخ العربي الإسلامي من حيث المادة التاريخية ومن حيث المناهج أيضا.

لا ينكر ابن خلدون فضل رواد التاريخ، بل يضعهم في مرتبة"الأئمة" لكنه في نظره لم ينتجوا من التاريخ سوى"ظاهره"، وأن حديثهم كله ظل على هامش الكتابة التاريخية الحقيقية؟ لأنهم لم يتبعوا في ذلك "طبائع العمران"أي قوانين التاريخ وقوانين المجتمع البشري.

إن في نقد إبن خلدون صرامة وجرأة لم نعهدها لدى المؤرخين الذين سبقوه أو الذين جاؤوا بعده، ولا شك أن هذا الموقف هو الذي بنى عليه فكره التاريخي، وغيره من النظريات التي صاغها في المقدمة.

ولقد ظلت صرامة وجرأة ابن خلدون في نقده للمؤرخين والتاريخ كصيحة في واد، بحيث لم يستفد منها إلا عدد قليل من المؤرخين المعاصرين الذين تطورت أساليب النقد الحديث عندهم.

واما ما عدا ذلك فقد بقوا ولا يزالون على هامش التاريخ عوض أن يكتبوا في صلبه فيساهموا بذلك في بناء حاضر أممهم وفي التطلع إلى مستقبلها.

لقد أدرك إبن خلدون بعمق أهمية التاريخ ودوره في بناء حاضر الأمة وآفاقها المستقبلية، ولذلك دعا إلى ضرورة إعادة النظر في المفاهيم وفي المادة التاريخية وفي مناهجها، وذلك مساهمة منه في إنقاذ الأمة- العربية الإسلامية- التي صارت تتساقط أقاليمها أمام الأطماع الأجنبية كتساقط أوراق الخريف.

لاحظ إبن خلدون مادة التاريخ تتكرر على أيدي المؤرخين بحيث صار كل مؤرخ يقلد الذي سبقه، دون أن يدرك أن عمله مجرد إجترار معرفي وتراكم معلوماتي لا يزيد في الوعي ولا في التكوين شيئا.

ولذا أصر إبن خلدون –من خلال النقد الجذري والشامل- على إحداث إنقلاب أساسي داخل المعرفة التاريخية نفسها، فبين بأن التاريخ ليس معرفة ثابتة ومقدسة لأنه

بين على قواعد صحيحة، ولأن المؤرخين لم يراعوا في نقلهم طبيعة المتغيرات التي
دتها البنية الاجتماعية عبر مراحل تطور الأمة الإسلامية.

ويتضح ذلك جليا في محاولات المؤرخين –تحت طائلة من المؤثرات– وضع هذه
غيرات في إطار الزمن الماضي، ومن ثم منعوا أي إمكانية لتطور هذه المتغيرات حتى
ذ طريقها الصحيح نحو تشكيل مفاهيم جديدة ومناهج قويمة من أجل بناء
اضر والتطلع إلى المستقبل.

لقد اندهش إبن خلدون حين لاحظ أن العالم من حوله قد تغير بتغير عصور
ته، بينما بقي المؤرخون والكتابات التاريخية على ماهي عليه، هذا ينقل عن الآخر،
ن شيئا لم يحدث على الإطلاق؛ فدعا إلى أن التاريخ يجب ان يتغير بتغير معطياته،
المؤرخين أن يراعوا ذلك، ويكتوبوا التاريخ على ضوء تلك المتغيرات، ولا على
س التقليد الذي لا يوصل إلا إلى نتائج لا معنى لها.

ولكي يحول إبن خلدون هذه النظرية إلى واقع ملموس فإنه أجهد نفسه في بناء
وطها العريضة ضمن ما يعرف بـ "المقدمة" التي إستهل صفحاتها الأولى بنقد
رخين ومناهج كتاباتهم.

مهد لذلك بمحاولة إعطاء مفهوم عام للتاريخ، وقسم هذا المفهوم إلى قسمين،
ل سطحي يكون التاريخ فيه ظاهريا "لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول"، وأما
فهو "أصيل في الحكمة عريق وجدير بان يعد من علومها وخليق".

من هذين المفهومين يحاول ابن خلدون فيما بعد بناء آرائه النقدية تجاه المؤرخين
جهم التاريخي، وانهم عموما كانوا ينظرون إلى التاريخ حسب المفهوم الأول، بينما
عو إلى أن ينظر إليه حسب مفهومه الثاني.

وبنفس المنهج استهل ابن خلدون حديثه العام عن المؤرخين حيث قسمهم إلى قسمين، الأول سماهم بـ"فحول المؤرخين" بينما أطلق على أصحاب القسم الثاني إسم "المتطفلين"؛ وبقدر ما أطنب في مدح اصحاب القسم الأول، بقدر ما قدح في أصحاب القسم الثاني، وعنده ان "فحول المؤرخين " قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل[18] بينما اصحاب القسم الثاني كثيرون نظرا لتقليد بعضهم بعضا.

غير أن "فحول المؤرخين" لم يعفهم من النقد العام، ذلك أن ميزتهم تتلخص فقط في احترام مجهودهم كجامعين للمادة التاريخية، إضافة إلى كونهم تحدثوا عن فترة تاريخية متشابهة العصور رتيبة الحوادث[19]، الشيئ الذي لم يجبرهم على محاولة الإبداع في المناهج وطرق الكتابة.

ومع ذلك فإنه لم يراعو فيها قواعد المنهج الصحيح بحيث أنها تسقط بمجرد محاولة تطبيق أصول النقد عليها، وذلك بالنظر إلى مسائل عديدة منها الرجوع إلى أسباب الحوادث وعوامل تشكيل معطياتها.

وابن خلدون في نقده هذا يهاجم كل المؤرخين دون استثناء إلا أنه يلطف الحديث ويعمم النقد حين يشير إلى مشاهير المؤرخين :" وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الإثبات... والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون".

والمؤرخون في نظر إبن خلدون صنفان ، مؤرخون عالميون[20] تناولوا أحداث العالم وتعاقب الدولة، ونموذجه في ذلك هو المؤرخ المسعودي[21] ومؤرخون محليون اقتصروا على ذكر حوادث عصرهم وأمصارهم ، ونموذجه هو "أبو حيان" مؤرخ الأندلس و"الرقيق " مؤرخ إفريقية[22].

ج إبن خلدون هذين الصنفين في خانة المؤرخين المشاهير ويميزهم عن واما ما عدى ذلك فهم مجرد مقلدين، وهؤلاء هم الذين يتناولهم صاحب لنقد اللاذع ويفصل في الحديث عن أخطائهم من حيث عرض المادة التاريخية ث الطرق ومناهج التعامل معها أيضا.

الصنف من المؤرخين هم أسباب مأساة التاريخ والدراسات التاريخية في نظر رن، ولذلك فإنه لم يتردد في شن حملاته ضدهم ولعلهم كانوا إحدى الأسباب لته ينظر في التاريخ ويجعل له قواعده ومناهجه كمحاولة منه لإنقاذه من لذي أصابه في الصميم.

أن يوجه صاحب المقدمة آراءه حول إصلاح مناهج التاريخ بين عام بعض رق وأساليب هؤلاء المؤرخين وهي التي كانت الأسباب التي وضعتهم في ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد بليد الطبع والعقل أو متبلد ينسج على ال.ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال صورا قد تجردت عن موادها، إنما دث لم تعلم أصولها... يكررون في موضوعاتها الأخبار المتداولة بأعيانها... أمر الأجيال الناشئة في ديوانها. بما أوعز عليهم من ترجمانها، فتستعجم عن بيانها".

سح إبن خلدون أن هؤلاء قد سببوا أزمة فكرية وأعاقوا طلاب المعرفة على ائع التاريخية، لأنهم لا يعتمدون إلا على النقل المبالغ فيه دون محاولة التفكير رة إلى الأسباب التي أدت إلى ظهور تلك الأحداث ولا إلى الغايات التي ليها.

تراكم المعرفي للتاريخ –كما يشير إلى ذلك ابن خلدون– لم يزد الناظرين فيه كا بسبب ذلك الضعف المنهجي لدى المؤرخين المقلدين، ومن ثم فهم

مدعوون إلى وضع حدا لهذا التقليد وإيقاف عمليات النسخ التي لا تؤدي إلا إلى الإرتباك وضياع الجهد والوقت على حد سواء.

وفي هذا الإطار يطرح إبن خلدون مشروعه التاريخي، ويوضح منهجه وأسلوبه وذلك قبل الحديث عن النقد المفصل للمؤرخين الذين سبقوه والنظريات التي اقترحها كبديل لحل أزمة التاريخ والتي ضمنها كتابه المشهور "المقدمة"

وهذا ما يجعلنا نتأكد بأن إبن خلدون كان يفكر في كتابة التاريخ قبل التفكير في التنظير له:"فأنشأت في التاريخ كتابا، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا، وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا، وبنيته على أخبار الجيلين، الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار... وهم العرب والبربر... فهذبت مناحيه تهذيبا، وقربته لإفهام العلماء والخاصة تقريبا...".

ويسترسل *ابن خلدون* في ذكر مناهجه وطرق تعامله مع المادة التاريخية لكتابة تاريخ المغرب، موضحا أنها إجتهادا منه وابتكارا لم يسبقه إليه أحد:"وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا، واخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا، وطريقة مبتدعة وأسلوبا...".

ويهدف ابن خلدون من كل ذلك محاولة حل مشكلة التقليد الذي أصاب المؤرخ والتاريخ على حد سواء، وهو موضوع طرحه صاحب المقدمة في مناسبات عديدة وهو هنا يبين كيف يمكن للمؤرخ أن يخرج من دائرة هذا التقليد إلى إدراك الحقائق التاريخية إدراكا يمّكن صاحبه من الفهم العميق للأحوال الماضية واللاّحقة أيضا.

ولعلّ هذا طرح جديد لم يكن في متناول فهم أحد من المؤرخين قبل إبن خلدون وحتى بعده، وهو مدى مساهمة معرفة الماضي في بناء المستقبل؟ولا شك أن هذه المسألة لا تزال مطروحة لدى عدد غير قابل من علماء التاريخ ومن علماء الاجتماع وغيرهم من المفكرين السياسيين.

أشار ابن خلدون إلى هذه القضية عرضا ولم يفصل في توضيحها ولا تظهر
إلا بعد متابعة أفكاره وآرائه وانتقاداته عبر كل مراحل كتاباته وأفكاره التي
ي المقدمة كما سنلاحظ.

ن خلدون بنقد منهج الإسناد كخطوة لنقد التقليد والاجترار المعرفي ومحاولة
هج التاريخ عن منهج العلوم الدينية؟ وبديله في ذلك كله هو العودة إلى المناهج
نطقية في إمكانية وقوع الحدث من عدمه وهي التي يسميها بـ "طبائع العمران".

م من بداية الطرح الذي عرضه إبن خلدون في بداية المقدمة انه يريد أن يضع
مة التاريخ في التراث العربي الإسلامي، حيث اكتشف بعض الاستثناءات
منها أن معظم المؤرخين ينقل بعضهم عن بعض من جهة ، ومن جهة أخرى
جلون الأخبار وينسقون الأحداث في إطار قوالب جاهزة ومناهج مسبقة
عاة لتقلبات الأحداث وخصوصيات الدول والعوامل التي تحكمت فيها أو
با في وجودها:" ثم إذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا، محافظين
وهما أو صدقا..."[23].

يخ بهذا المعنى لا يكون سوى مجرد نقل جاف للأحداث، لا يزيد القارئ
' إرتباكا وحيرة، حيث تتركه القراءة لمثل هذا التاريخ حائرا شارد الذهن
كر حول الأحداث المتعاقبة التي لا يربط خيوطها أي رابط موضوعي يمّكنه
سباب وقوع الحادثة وينير له الطريق مظاهر تطورها ويوضح له النتائج التي
ها.

هذه الزاوية جاء إبن خلدون ليسد الطريق امام هذا التاريخ الجاف، وهذا
مقوت الذي إعتاد المؤرخون تعاطيه بدون توقف، حتى فقد التاريخ على
ناه ولم يعد ينتظر منه أي جديد.

ولكي ينجح إبن خلدون في وضع حد لهذه الظاهرة، كان عليه أن يسلك منهجين أساسيين، أولهما هو نقد ما هو موجود في الواقع، وثانيهما إيجاد البديل لذلك.

ويبدو أن المنهج الأول قد كان بسيطا حيث شن الرجل غضبه على المؤرخين ونقده للمقلدين ولم يستثن منهم إلاّ القليل، وبغض النظر عن الأمثلة الحية التي استشهد بها وأسماء المؤرخين الذين ذكرهم[24] فإنه يمكن إيجاز ذلك فيما يلي:

- لا يذكرون السبب الذي رفع من رايتها، ولا علة الوقوف عند غايتها.
- نقل الأخبار وهما أو صدقا.
- لا يتعرضون لبدايتها.
- ضعف النظر والغفلة عن القياس.
- كثرة المغالط، والنقول بعضهم عن بعض.
- عدم الرجوع إلى البحث والتفتيش في تقصي الأخبار والحوادث.
- كثرة الوهم والوقوع في الغلط.
- غياب معيار الحكمة وبعد النظر في التعامل مع الأخبار.
- الإكثار من النقل غثا أو سمينا.
- عدم ربط الأسباب بالنتائج.
- عدم عرض الأحداث على أصولها وقواعدها.

غياب استخدام القياس والمقارنة بين الأحداث عندما تتكرر متشابهة وتتكرر الأخطاء.

- غياب الوسطية وانعدام تطبيق العدالة في الأخبار.
- الجهل بقواعد السياسة وطبائع الموجودات.

فقدان الإحاطة بالحاضر حتى تتم عملية التنسيق بينه وبين الماضي.

الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار.

كثرة المتطفلين[25].

الإنحراف السياسي والمذهبي.

الثقة العمياء في الناقلين.

الذهول عن المقاصد.

الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع.

التقرب من أهل السلطة وأصحاب الجاه.

الجهل بطبائع الأحوال في العمران.

قلة التنقيح والتحقيق

إغفال أمر الناشئة .

عدم الوقوف على طبائع الكائنات .

قلة تحكيم النظر والبصيرة في الأخبار.

الضلال عن الحق والتيه في بيداء الوهم والغلط.

تجاوز حدود العوائد.

ونظرا لسيطرة هذه الأساليب والمناهج على أفكار المؤرخين وانعكاساتها على انتاجهم إنعكاسا أفقد التاريخ معناه الحقيقي، وأوضح مجرد أقاصيص تتداوله العامة عوض أن يكون فنا يعتمد على قواعد وأصول علمية لفهمهم جيدا وصحيحا، ذلك أن إن نقد إبن خلدون للتاريخ والمؤرخين ليس

هدفا في حد ذاته، وإنما كان ذلك تمهيدا لوضع أسس وقواعد لمفهوم التاريخ ، ومناهج وأساليب للتعامل مع المادة التاريخية.

فمشروع إبن خلدون إذن هو إنقاذ التاريخ مما أصابه من الزيف وإنقاذ المؤرخين من التقليد الناتج عن الأساليب والمناهج البالية، وبمعنى آخر ان مشروعه هو دعوة إلى إعادة كتابة التاريخ كتابة جيدة وصحيحة تعتمد اعتمادا أساسيا على قواعد وأصول جديدة، أجهد نفسه لتوضيحها وطرحها في المقدمة.

وإذا إعتتبرنا أن جملة الانتقادات التي وجهها إبن خلدون للمؤرخين كانت موضوعية وفي محلها أدركنا جيدا أنها مجرد تمهيد لطرح مشروعه الجديد ومحاولة إقناع القارئ بجديته وبأهميته؛ ولكي يسهل علينا إدراك بعض نظريات هذا الرجل فيما يدعو إليه يكفي مبدئيا أن نعيد قراءة إنتقاداته التي وجهها إلى المؤرخين بشكل عكسي[26]، فنحصل حينئذ وبسهولة على نوعية المؤرخين الذين يرشحهم إبن خلدون لإعادة كتابة التاريخ، ولكتابة التاريخ مستقبلا.

بيد أن مشروع هذا المفكر لم يقف عند هذا الحد كما أشرنا وإنما هو مجرد تمهيد لاستحضار البدائل، ومنها محاولة فصل مناهج معرفة التاريخ عن مناهج العلوم الدينية، فالتاريخ في نظره أخبار عن الوقائع أما سواها هي أخبار عن علوم شرعية تعتمد في صحتها على نصوص أصلية قوامها الإسناد ومنهج قبولها هو "التعديل والتجريح".

وهذا المنهج لا يفيد التاريخ في شيئ، وإنما ما يفيد صحة الخبر وصدقه هو إمكانية وقوعه أو استحالة ذلك بالنظر إلى مسألة مطابقة الخبر على أرض الواقع.

ولعل هذا الرأي هو دعوة صريحة إلى استخدام العقل والمنطق في إمكانية قبول الخبر التاريخي أو رفضه، ذلك أن قبول وصدق الأحداث التاريخية تتعلق بمعق

مطابقتها للواقع أو عدم مطابقتها. ومسألة المطابقة هذه هي التي يرشحها ابن خلدون كأداة هامة لفهم التاريخ فحسب، وإنما لكتابته أيضا، وذلك عن طريق جملة من المعارف والمناهج التي يمكن إيجازها فيما يلي:

- النظر والتحقيق
- تعليل الكائنات ومبادئها.
- العلم بكيفيات الوقائع وأسبابها.
- إرجاع الأخبار إلى طبائع العمران واحواله.
- البحث عن المقنع في تبيان الأحداث أو تناسبها.
- إحكام أصول العادة وقواعد السياسية وطبيعة العمران وأحواله في الاجتماع الإنساني.
- قياس الغائب منها الشاهد والحاضر بالذاهب.
- الوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار.
- العلم باختلاف الأمم والبقاع والأعصار في سائر الأحوال.
- الإحاطة بالحاضر ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق، أو بون ما بينهما من الخلاف.
- تعليل المتفق منها والمختلف.
- القيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها...
- عرض الخبر المنقول على القواعد والأصول.
- العلم بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها.
- تمحيص الخبر وتمييز الصدق من الكذب.
- وجوب النظر في إمكان وقوع الخبر
- التطلع إلى افتقار احوال مبادئ الدول ومراتبها.

- التفتيش عن أسباب تزاحمها وتعاقبها مثل السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب.

ماذا يبقى لنا من تعليق بعد هذه النظريات التي صاغها هذا الرجل الحكيم وهذا المفكر البارع، أليس في هذه الأطروحات جرأة دامغة الحجة وبالغة الأثر؟ وهل يصح قراءة التاريخ أو تدريسه أو كتابته دون الرجوع إلى مثل هذه الآراء الصائبة.

إن ما قدمه إبن خلدون من نقد للتاريخ والمؤرخين وما عرضه من مناهج وأساليب لإعادة النظر في الكتابات التاريخية لجدير بأن يحض بعين الاعتبار لدى المثقفين عامة ولدى المؤرخين خاصة.

ولقد أدرك الرجل بعمق ما لأهمية التاريخ في تكوين الأجيال وماله من دور في الحاضر والتطلع إلى المستقبل، وإلا لما منحه عصارته الفكرية التي يجلها كل المثقفين في العالم دون استثناء.

كان التاريخ يرفث تحت نير التقليد، وكان المؤرخون منكبين على وجوههم فأقامهم منتصبين من خلال تلك الانتقادات الصائبة ومن خلال المفاهيم الواقعية، والنظريات العلمية التي لا يرقى إليها شك.

لقد حول إبن خلدون التاريخ من مجرد أساطير وقصص متداولة إلى علم قائم على التفكير المنهجي والذي يعتمد على معارف شتى وعلوم متنوعة، تساعده على تمثيل دوره الحقيقي في تزكية الفكر ودفع عجلته بين المؤرخين وفي باطنه- أي التاريخ- نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبائها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها وعميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق..."(27)

أليس من العيب وقلة الفطنة أن يبقى المؤرخون يعيدون ويكررون وهم ذاهلون أخبار أمم وكيانات وحتى أشخاص، ومتمسكون بها ومعتنون بها رغم سقوطها عند أول محاولة لانتقادها.

إن تعلق المؤرخين المعاصرين بقوالب أحداث الماضي ومحاولة وضع أفكارهم ضمن سياق الأحداث الماضية، هو جمود لا شروى منه إلا بالعودة إلى المنهج الصحيح الذي أشار ابن خلدون إلى بعض خيوطه، ومنها على سبيل المثال استخدام النقد العلمي فيما يعرض على المؤرخ من أحداث" فلا تثق بما يلقى من ذلك وتأمل الأخبار وعرضها على القوانين الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه"[28].

وإلحاح الرجل على استخدام العقل في الدراسات التاريخية له أكثر من معنى، ذلك أن علم التاريخ لا يختلف في عمقه عن باقي العلوم الطبيعية، حيث أن الأحداث والتطورات الاجتماعية والإقتصادية والسياسية التي هي من مجالات اهتمام المؤرخين لا تقع عشوائية، وإنما تتحكم في وجودها قوانين علمية ونظريات صحيحة يعيها جيدا المؤرخون النابهون، بواسطة مناهج وأساليب علمية دقيقة قوامها العقل وتحكيم النظر والبصيرة فيما يعرض من أحداث وقضايا.

بقي بعد هذا أن نقول أن مثل هذه الآراء كان من المفروض أن تحدث ثورة معرفية وتيارا ثقافيا جارفا في حياة الأمة الإسلامية –على الأقل- لكن الرجل ظلت صيحته في وادي ولم يتحرك المؤرخون ولم يتململون لرفض الجمود ونبذ التقليد. ولو كان غير ذلك لكان لتاريخ المسلمين شيئا آخر ولكان لهذه الأمة وجها آخر لا يعلم مداه غير خالقه سبحانه وتعالى.

وفي انتظار ذلك اليوم الذي يستدرك فيه المثقفون العرب عامة والمؤرخون خاصة ما فاتهم من مناهج وأفكار، وما كان ينتظرهم من تمثيل الأدوار الحقيقية في مجتمعاتهم ، وماكان ينبغي عليهم أن يقوموا به، حين ذلك سينطبق عليهم الحكم الصادق ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾.[آل عمران، الآية: 110]

الهوامش:

(1) في كتاب مستقل نشرت الترجمة تحت عنوان "التعريف بإبن خلدون ورحلته غربا وشرقا، طبع 1371هـ/1951م (لأول مرة).

(2) يمكن الإكتفاء بالمصدر السابق الذكر وهو التعريف.

(3) ولد سنة 732هـ/1332 م.

(4) كانت البلاد المغرب في هذه الفترة تزخر بالعلماء و المفكرين ومنهم على سبيل المثال "أبو عبد الله بن إبراهيم الأبني" شيخ العلوم العقلية على حد تعبير ابن خلدون.

(5) لم يكن عمره حينئذ قد تجاوز العشرين سنة.

(6) أخذت مدينة فاس تمثل دورها الحضاري إلى جانب الدور السياسي منذ مجيء بني مرين إلى السلطة وخاصة في عهد السلطان أبي عنان الذي وحد السلطة في المغربين الوسط والأقصى في منتصف القرن الهجري الرابع عشر الميلادي.

(7) كانت لابن خلدون علاقات صداقة بينه وبين أمير غرناطة محمد الغني بالله، والوزير الأندلسي إبن الخطيب حين كانا في منفاهما ببلاد المغرب الأقصى.

(8) كلف إبن خلدون بتمثيل دور الوساطة بين سلطان غرناطة وحاكم مملكة قشتالة "بذور" وقد نجح في المسعى السلمي بينهما وكان هذا النجاح دافعا على إستعادة الثقة بنفسه خصوصا بعدما تلقى مظاهر الإعجاب من قبل صاحب إشبيلية.

(9) عبر عن ذلك إبن خلدون في كتابه "التعريف"ثم لم يلبث العداء وأهل السعايات أن خيلوا الوزير إبن الخطيب من ملابستي السلطان وإشتماله علي، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر، وشممت منه رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة وتحكمه في سائر أحوالها.

(10) عن هذه الشخصية راجع كتابي الفكر السياسي الإسلامي في الجزائر، وسيصدر قريبا.

(11) جاء في كتابه التعريف: قصد القرار والانقباض و العكوف على قراءة العلم.

(12) تدعى قلعة بني سلامة وتقع إلى الجنوب الغربي من مدينة فرندة ولا تبعد عنها سوى بـ 6كلم.

(13) التعريف، ص 229-230.

(14) هناك مئات الدراسات والأبحاث تناولت أهمية كتاب المقدمة وقدمت كرسائل جامعية في مختلف عواصم العالم، ومعظمها وصلت إلى نتيجة واحدة وهي ان إبن خلدون كان مبدعا ومبتكرا في معظم القضايا التي أشار إليها.

(15) خرج ابن خلدون من القطر الجزائري وقصد تونس سنة 780هـ/1378م

(16) نكب إبن خلدون في أسرته حين كانت قادمة إليه من تونس، حيث توفي كل عناصرها غرقا في سواحل الإسكندرية.

(17) حوول أعمال تيمورلنك وغزواته أنظر كتابي، دراسات وأبحاث في التاريخ الإسلامي (الجزء الثالث)

(18) ذكر إبن إسحاق، الطبري، إبن الكلبي، الواقدي، الأسدي، المسعودي، وعن هؤلاء جميعا أنظر، كتاب مناهج التاريخ، هنا وهناك.

(19) يقصد بذلك فترة "صدر الإسلام"ويحددها بتاريخ الدولتين الخلافة الأموية و العباسية في المشرق.

(20) ويمكن تسميتهم بالمؤرخين الموسوعيين ،وعنهم انظر ،كتابي مناهج التاريخ.

(21) للمزيد حول هذا المؤرخ راجع كتابي ،مناهج التاريخ،ص 51-54.

(22) عن هذين المؤرخيين أنظر أعلاه.

(23) راجع الملحق

(24) حول هذا الموضوع راجع الملحق، ص

(25) نظرا لكل ذلك كثر إهتمام البلداء و المتطفلين على التاريخ.

(26) أي قراءة الجديدة تعتمد على عكس مفهوم النقد مثلا: الجهل بطبائع الأحوال في العمران نعيد قرائتها معكوسة فنقول" العلم بطبائع الأحوال وهكذا".

(27) المقدمة، أنظر الملحق بهذا الدراسة.

(28) المقدمة أنظر الملحق بهذه الدراسة.